

الاكتشافات الأثرية والهوية المصرية

أ. د. أحمد زكريا الشلق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الاكتشافات الأثرية والهوية المصرية

أ. د. أحمد زكريا الشلق(*)

الملخص

«تهتم هذه المداخلة -الورقة- برصد الظروف التاريخية التي تكونت فيها هوية مصر القومية في القرن التاسع عشر، والتي عادة ما تخضع للنقاش في فترات الضعف أو الأزمات السياسية، حيث يثور الجدل حول ما إذا كانت هوية مصر عربية إسلامية، أم فرعونية، أم أن توجهات هويتها ينبغي أن تكون بحر متوسطية أو غربية. وستتخذ هذه المداخلة اتجاهاً فكرياً، يتصل بتاريخ الفكر المصري الحديث، مع التركيز على تأثير الاكتشافات الأثرية، ونشأة وتطور علم المصريات، في تكوين هذه القومية.

Abstract

This paper will examine the historical circumstances in which Egypt's national identity was formed in the nineteenth century, which is usually subject to debate in periods of weakness or political crises, where controversy arises over whether Egypt's identity is Arab-Islamic, or Pharaonic, or whether its identity orientations should be Mediterranean or Western. This paper will adopt an intellectual approach related to the history of modern Egyptian thought, with a focus on the impact of archaeological discoveries and the emergence and development of Egyptology in the formation of this nationalism.

(*) أستاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة عين شمس .

أود في البداية الإشارة إلى أنني لست متخصصاً في علم الآثار ، أو في تاريخ وحضارة مصر القديمة ، وإنما معنى بتاريخ مصر في القرن التاسع عشر بشكل أساسي ، هذا القرن الذي تكونت فيه هويتها القومية الخاصة ، والتي عرفت بالقومية المصرية . ومن هنا سوف ستتخذ هذه المداخل - الورقة - اتجاهاً فكرياً ، يتصل بتاريخ الفكر المصري الحديث ، مع التركيز على تأثير الاكتشافات الأثرية ، ومن ثم نشأة وتطور علم المصريات ، في تكوين هذه القومية .

ومن المهم أن أشير إلى أن قضية هوية مصر القومية عادة ما تخضع للنقاش في فترات الضعف أو الأزمات السياسية ، حيث يثور الجدل حول ما إذا كانت هوية مصر عربية إسلامية ، أم فرعونية ، أم أن توجهات هويتها ينبغي أن تكون بحر متوسطية أو غربية .

ومن المهم أن أشير أيضاً إلى أنه كان لدى المصريين ، قبل القرن التاسع عشر ، وهو قرن الاكتشافات الأثرية ، ونشأة وتطور علم المصريات ، وقرن الاستعمار الأوروبي ، كان لديهم إحساس غامض بأن لهم وجوداً تاريخياً قبل الفتح الإسلامي والعربي لمصر في القرن السابع الميلادي ، ظهر هذا الإحساس لدى كتاب الخطط الذين كتبوا عن الآثار المصرية ووصفوها قبل القرن التاسع عشر ، لكن هذا التاريخ القديم لم يعرف على حقيقته ، ولم يكن قد كتب كتابة علمية بعد ، ومن ثم كان المؤرخون يركزون على أن تاريخ مصر يبدأ منذ الفتح الإسلامي العربي ، اعتماداً على ما سجلته كتب الحوليات والمصادر العربية المتعلقة بالحقبة الإسلامية بشكل خاص . ولذلك كان التركيز على أن هوية مصر إسلامية ، وأنها جزء من الدولة الإسلامية الكبرى آنئذ ، وهي الدولة العثمانية ، وأصبح أمراً مسلماً به أن المصريين من رعايا الدولة العثمانية ، آخر الدول الإسلامية الجامعة في التاريخ .

وكما هو معروف يعد علم الآثار المصرية المصريات (Egyptology) من العلوم

الإنسانية الحديثة في مصر، ذلك لأنه ارتبط بفك طلاس اللغة المصرية القديمة، وهو ما بدأ عام ١٨٢٢ منذ نجح العالم الفرنسي شامبليون في فك رموز هذه اللغة الموجودة على حجر رشيد، الذي كان الإنجليز قد أخذوه معهم من مصر، بعد أن جاءوا للمعاونة في إخراج الفرنسيين منها عام ١٨٠١، ثم احتفظوا به في المتحف البريطاني منذ ذلك التاريخ. لقد نتج عن فك رموز اللغة الهيروغليفية أن استطاع المؤرخون معرفة أصول الحضارة المصرية القديمة والكتابة عنها استناداً إلى الاكتشافات الأثرية وقراءة نقوشها.

ومن الثابت أن نشأة وتطور علم الآثار في مصر ارتبط بالنفوذ والسيطرة الإمبريالية الأوروبية فيها، هذا النفوذ الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر واستمر طوال القرن التاسع عشر. وقد كان الرحالة الأجانب وقناصل الدول الأوروبية بمصر يرون أن المصريين لا حق لهم في الآثار التي يجمعها من مصر المغامرون وبعثات جمع الآثار المصرية للإتجار بها أو لحساب المتاحف الأوروبية، ويروجون لفكرة أن المصريين لا يقدرون قيمتها الحضارية، ولا يعينهم منها سوى النقود التي يحصلون عليها من بيعها، وأن الأوروبيين أولى أو أحق بها، لأنهم يكتشفونها، ويقدرن قيمتها ويخصصون لها المتاحف في بلادهم باعتبارها تراثاً إنسانياً وعالمياً.

وفي عام ٢٠٠٢ ألف الدكتور «رونالد مالكولم ريد» الأستاذ بجامعة جورجيا كتاباً مهماً تحت عنوان «فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف وهوية مصر القومية، من نابليون حتى الحرب العالمية الأولى» أثبت فيه كذب هذه الفرية التي روج لها الأوروبيون في ثقافتهم، والتي ترى أن المصريين لم تكن لهم أية معرفة أو علاقة بعلم الآثار، وقدم «ريد» أدلة على أن كتاب «الخطط» كتبوا عن الآثار المصرية، وقدموا وصفاً لها في العصر الذي كتبوا فيه مؤلفاتهم، وخططهم وحولياتهم، قبل القرن التاسع عشر.

ثم جاء القرن التاسع عشر ، قرن الاكتشافات العلمية ، لتُبرز كتابات عبد الرحمن الجبرتي ورفاعة الطهطاوي وعلى مبارك أهمية هذه الآثار على نحو جديد ، والأهم من ذلك اهتمامهم بتاريخ مصر القديم ، وكتابتهم التي أظهرت الوعي بالقيمة التاريخية لما يقع على أرض مصر من شواهد أثرية تدل على ثرائها الحضاري العريق . ولذلك كله يصبح اتهام المصريين بعدم إدراك القيمة الحضارية للحضارات القديمة التي قامت في بلادهم ، مجرد مبرر لاستلاب المصريين آثارهم الثمينة ، لتعمر بها متاحف أوروبا ولتزدان ميادينها بالمسلات المصرية .

لقد نقض «ريد» مقولة أن علم الآثار علم غربي ، حيث حرص على تسجيل اهتمام الكتاب المصريين بالآثار ، مما ألقى الضوء على الوعي بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضاري عند المصريين . كما سجل فضل محمود الفلكي في ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية . وعلى نحو خاص أفرد مساحة أوسع من كتابه لدراسة ثلاثة من رواد العمل الأثري من المصريين هم : أحمد كمال وعلى بهجت ومرفص سميكة .

وعند متابعة تاريخ هذه الجهود تتضح محاولات الأجانب إبعاد المصريين عن ميدان الآثار ، مما تمثل في صورة صراع بين المصريين والأجانب من أجل تحرير بلادهم من السيطرة الأجنبية ، وهو ما يبرز عند دراسة العلاقة بين الرائد أحمد كمال وعلى بهجت والأجانب في سياق العمل الوطني الذي استهدف الحفاظ على الهوية المصرية .

والواقع أنه لا يمكن فهم هذه التطورات دون رصد معالم النهضة العلمية والثقافية التي صاحبت مشروع محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨) لإقامة نظام تعليم مدني حديث ، إلى جانب حركة الترجمة ، بالإضافة إلى الانفتاح على الحضارة الغربية ومعارفها الحديثة . كذلك لا بد من رصد التطورات التي شهدتها مصر في عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ومشروعه الثقافي الكامل الذي تولى صياغته على مبارك

بمساعدة الطهطاوي .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عصر نضوج الثورة الصناعية في أوروبا وهيمنتها على الأسواق العالمية ، لعب الأوروبيون دوراً رئيسياً في وضع أسس «علم المصريات» وفي إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها وإقامة المتاحف في مصر . مما يعنى ضرورة رصد الارتباط بين هذا الاهتمام بالآثار من جانب الأوروبيين وبين الموجة الإمبريالية التي استهدفت فتح الأسواق لاستثمار فائض رؤوس الأموال وتصريف الإنتاج ، وسعيها لحماية مصالحها من خلال الهيمنة السياسية على مصر . لقد سيطر الأوروبيون على الإدارات التي عُيّنت بالمتاحف والآثار خلال الفترة (١٨٥٨-١٩٠٨) وهي المتحف المصرية الأربعة التي أقيمت خلال هذه الفترة :

المتحف المصري (الانتكخانة) الذى خصص لآثار مصر في العصر الفرعوني ، وقد أنشئ المتحف المصري عام ١٨٥٨ في عهد محمد سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣) على شاطئ النيل عند بولاق لتيسير نقل الآثار من الصعيد عن طريق النيل واشتمل مبناه على : «مصلحة الانتكخانة» التي كانت تابعة لوزارة الأشغال العمومية وصلات عرض التحف الأثرية ، ثم مقر إقامة المدير ، ولما ضاق المكان ، انتقل إلى قصر الحرم ملك بالجيزة في أواخر عهد إسماعيل ، ثم نقل إلى مكانه الحالي بميدان التحرير في عهد الخديو عباس الثاني عام ١٩٠٢ وظلت إدارته بيد الفرنسيين حتى أواسط القرن العشرين .

المتحف اليوناني - الروماني الخاص بتاريخ مصر خلال هذا العصر ، وقد أقيم بالإسكندرية ، بعد أن زاد الاهتمام بالآثار خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وازداد البحث في تاريخ الإسكندرية ، ويرجع ذلك إلى جهود محمود الفلكي ، الذى كان له فضل ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية والتي هدفت التحقق من بعض مواقع الإسكندرية القديمة وإعداد خريطة لها وفي عام ١٨٩١ أسس بعض الإيطاليين

«الجمعية الأثينية» بالإسكندرية التي استطاعت إقناع المجلس البلدي بإنشاء المتحف اليوناني - الروماني ، ووافقت الحكومة مشترطة أن يخضع المتحف لإشراف مصلحة الآثار . ثم تأسست «جمعية آثار الإسكندرية» عام ١٨٩٣ لترعى إقامة المتحف الذي أقيم بالفعل عام ١٨٩٧ وظلت إدارته في يد الإيطاليين حتى أواسط القرن العشرين . المتحف القبطي ، الذي أقيم بمصر القديمة بمبادرة من أحد أعيان الأقباط وهو مرقص سميكة ، وافتتح فعلاً عام ١٩١٤ .

متحف الفن العربي ، الذي عرف بمتحف الفن الإسلامي فيما بعد . وقد بدأت فكرته عندما شكلت لجنة لحفظ الآثار عام ١٨٦٩ في عهد إسماعيل ، وكانت جهودها تنصب أساساً على ترميم المساجد التاريخية ، ثم تولت إقامة هذا المتحف عام ١٨٨٤ ، ثم حمل اسم متحف الفن الإسلامي منذ عام ١٩٠٣ .

وعلى الرغم من أن المصريين عرفوا علم الآثار عن طريق الأوربيين ، إلا أنهم ما لبثوا أن امتلكوا ناصيته ، وتوظيفه لخدمة أمانيتهم الوطنية ، وتأكيد استقلالهم وهويتهم .

لقد كان محمد سعيد باشا أول من أنشأ متحفاً للآثار الفرعونية عام ١٨٥٨ وإدارة للآثار ، وقد تولى «مارييت» الفرنسي رئاستهما .

أما الخديو إسماعيل فقد أسس عام ١٨٦٩ أول مدرسة مصرية عليا لدراسة المصريات عرفت باسم «مدرسة اللسان المصري القديم» وقد تولى الألماني هنريش بروجش رئاستها ، والتحق بها عشرة من الطلاب المصريين ممن يجيدون الفرنسية ، التي كانت لغة التدريس بها ، وقد درسوا الكتابة المصرية القديمة ، واللغة القبطية ، بالإضافة إلى دراسة اللغتين الألمانية والإنجليزية ، وتاريخ مصر القديم وأصول علم الآثار .

كذلك فإن بروجش ، إلى جانب إدارته للمدرسة وتكوينه للطلاب المصريين ، كان يلقي محاضراته عن تاريخ مصر القديمة «بدار العلوم» وينشر بعضها في مجلة «روضة المدارس المصرية» التي كان رفاعة الطهطاوي رئيساً لتحريرها . وقد نشر بها بروجش مقالات عن ملوك مصر القديمة ، وأصول الكتابة المصرية القديمة ، مما أتاح الفرصة لنشر المعرفة بالمصريات وتاريخ مصر القديم باللغة العربية لأول مرة .

وقد تدرب طلاب المدرسة على الحفائر الأثرية في صعيد مصر ، وتخرج من هذه المدرسة ٧ من الطلاب المصريين ، كان على رأسهم أحمد كمال ، أول عالم مصريات مصري غير أن مارييت رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار ، خشية إحلالهم محل الأوروبيين ، بل أكثر من هذا أمر بمنعهم من نسخ النصوص القديمة ، فاضطر هؤلاء للاشتغال بالتدريس والترجمة . . ثم أغلقت المدرسة في عام تخرجهم (١٨٧٢) .

ومع ذلك ساهمت جهود بروجش ، في نشر الوعي بالتاريخ القديم لمصر بين المتعلمين ورجال السياسة ، وتجلّى ذلك في الخطاب السياسي والثقافي الذي تغنى بمجد مصر القديم ، وهو ما ظهر في كتابات الطهطاوي وعلى مبارك وميخائيل عبد السيد ، ثم في أحاديث أحمد عرابي وعبد الله النديم . . كما تجلّى في تصميم الجناح المصري في معارض لندن وباريس والولايات المتحدة ، على النسق الفرعوني ، أو في اتخاذ الأهرام وأبى الهول رمزاً لمصر على طوابع البريد وغيرها . واتخاذ «الأهرام» اسماً لأبرز الصحف التي صدرت بمصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

وهذا الوعي بالتراث المصري القديم ، ما كان ليتحقق لولا الدور المهم الذي لعبته أول مدرسة مصرية للمصريات ومدرسة اللسان المصري القديم ، رغم قصر عهدها (١٨٦٩-١٨٧٢) .

ولعل هذه المعرفة بالتراث التاريخي لمصر القديمة هي التي جعلت رفاعة

الطهطاوي وهو يعد كتابه عن تاريخ مصر ، لا يبدأ بالفتح الإسلامي ، بل بتاريخ مصر القديم ، حيث خصص الجزء الأول منه للتأريخ لعصور الفراعنة والبطالمة والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الإسلام ، وقد طبع هذا الكتاب عام ١٨٦٨ وبهذا كان الطهطاوي أول مؤرخ مصري عرف تاريخ مصر على ضوء الاكتشافات الأثرية ، وما كتبه المؤرخون الأوروبيون عنه في عصره ، ومن ثم كان أول مؤرخ مصري آمن بأمجاد التاريخ المصري الفرعوني واعتز بمصر التي رآها أم الحضارات . . . وكان ذلك من مظاهر النهضة وتشكيل الوعي القومي الجديد ، مما أصبح له تأثيره في الأجيال التالية التي قادت الحركة القومية في مصر .

وفي عام ١٨٥٩ أسست نخبة من الجاليات الأجنبية بالإسكندرية «المجمع المصري» استلهاماً لذكرى المجمع العلمي المصري الذي أقامه بونابرت في مصر ، فأرادوا إحياءه تحت رعاية محمد سعيد باشا حاكم مصر آنذاك ، ولكن ليصبح اهتمامه مركزاً على الآثار المصرية والتراث المصري القديم . وقد تعاقب على رئاسته خلال الفترة ١٨٦١-١٩١٧ أربعة من الفرنسيين ، خلفهم يعقوب أرتين وكيل وزارة المعارف . وكانت الفرنسية لغة الإدارة ، وقد حدد المجمع هدفه بأنه «إحياء المعارف القديمة على ضفاف النيل ، تلك المعارف التي تعود إليها عظمة مصر القديمة مهد الآداب والفنون والعلوم» .

وعلى الرغم من أن الأجانب كانوا يمثلون أغلبية أعضائه ، فقد ضم نخبة من المصريين منهم الطهطاوي وعلى مبارك ومحمود الفلكي ، وكان الأخير عضواً بمجلس إدارته ، وقد ألقى فيه محاضرات عن تاريخ مصر القديم ، كما قدم دراسة لفرع النيل (الكانوبي) الذي يصل رشيد بالإسكندرية . وقد نشر الفلكي دراساته في عدد من الدوريات العلمية الأوروبية الشهيرة . كذلك انضم إلى هذا المجمع عام ١٩٠٤ أحمد كمال الذي يعد أول عالم آثار مصري .

ويلاحظ أنه بعد أن كان قدوم الأجانب إلى مصر قاصراً على الرحالة وبعثات جمع الآثار للإتجار بها في أوروبا ، شهدت مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطورين مهمين :

أولهما : اشتراك مصر في المعارض الدولية ، فكان اشتراك مصر في المعرض الصناعي الدولي في لندن عام ١٨٥١ بجناح صمم على الطراز الفرعوني أمراً جديداً ومهماً . كما شاركت مصر في المعرض الدولي بباريس عام ١٨٥٥ ، ثم اشتراكها عام ١٨٦٧ في معرض باريس أيضاً ، حيث شهد المعرض جناحاً مصرياً متميزاً عبر عن تراث مصر الفرعوني والإسلامي .

وثانيهما : رواج حركة السياحة الأوربية المتجهة إلى مصر لمشاهدة آثارها ، وكانت أفواج السائحين ينظمها بيت سياحي بريطاني (توماس كوك وولده) بين أوروبا وأمريكا ومصر مستخدماً السفن البخارية ومبتدعاً خطوط البواخر النيلية ، فضلاً عن تشجيع إقامة الفنادق والمشاركة في إنشائها بالأقصر وأسوان والقاهرة ، ثم جاء امتداد خطوط السكك الحديدية إلى أسوان ليختزل زمن الرحلة وتكاليفها مما زاد من أعداد الرحلات السياحية .

ومع ظهور التصوير الفوتوغرافي ، بدأت تظهر صناعة طبع الصور التي تعبر عن الآثار المصرية ، وظهور البطاقات البريدية التي تحمل صور الآثار المصرية والتي يرسلها السياح من مصر إلى ذويهم في بلادهم .